الفصل العاشر

السيدة شيرا..

وظلت السيدة تجوب شارعاً يتلوه آخر بحثاً عن مكانٍ يمكنها المبيت فيه.. ولأول مرةٍ، تشعر أن في السجن مأوىً لها، فإذا لم يكن أمامها الليلة سوى المبيت في العراء، فوجودها داخل أحد سجون الاحتلال خيراً من الله لم تعلم قيمته إلا الآن.. ثم أرجعت النظر ثانية فقالت في نفسها:

-فليكن العراء مقابل الحرية.

وظلت تغدو وتروح بطرقات المدينة.. وضاقت عليها الأرض بما رحبت.. وجال بخاطرها أن تطرق أبواب أحد البيوت، فتطلب من أهلها إيواءها ليومٍ أو اثنين، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، لكن خجلها وكسرةً خلفتها السنوات الماضية بروحها جعلها تخجل أن تطلب طلباً كهذا.

واستمرت في السير، وكلّت قدماها من التعب ولم تجد شيئاً غير السير لتفعله.. وظلت هكذا حتى فوجئت بأنها تقف وسط آلاف من اليهود الذين يتجمعون؛ للاحتفال بعيد الفصح الذي يوافق ذكرى خروج بني إسرائيل من مصر في عهد نبي الله موسى" عليه السلام ".

وتضاربت دقات قلبها في عنفٍ، وامتلأ صدرها بالجزع، وحاولت السيطرة على أعصابها حتى تخرج سالمة من بينهم.. وحاولت الانطلاق من بين صفوفهم حتى تعود إلى الشارع الذي أتت منه ولكن المكان ازدحم، وكثرت الهمهمات والتي استطاعت أن

تفهم منها أن الكهنة قد وصلوا إلى المكان، وتدفق الرجال الذين أتوا؛ لتأدية الصلاة وإقامة طقوس" بركة الكهنة "، والتي هي أهم مظاهر احتفالاتهم بعيد الفصح.

وصمت الجميع، ووضع الرجال على روؤسهم الأقمشة البيضاء المزكرشة باللون الأزرق واتجهوا إلى الكهنة الذين يقفون على الجانب الآخر من الساحة حتى ينالون من بركتهم، ويصيبهم شيءٌ من دعائهم كما يدّعون، وحسب معتقداتهم.. ولم تجد بُداً من التقدم داخل الساحة وليحدث ما يحدث.

حاولت أن تجر أقدامها، وأن تسير إلى الأمام باتجاه الكهنة حتى تستطيع أن تتخلص من هذا الموقف السخيف الذي يجمعها بأشرار هذه الأرض.. أولئك الذين انتزعوا سنوات شبابها انتزاعاً، وكانوا سبباً في تشريدها، وإبعادها عن طفلتها بعد أن قتلوا وليدها.. وامتلأ صدرها بالغضب، ورفعت بصرها إلى السماء داعية الله أن يخرجها من هذا المكان المشؤوم.

وقبل أن تتم دعاءها، وبينما هي ترفع بصرها إلى السماء إذا بها تلمحُ تلك القبة الخضراء، والتي مال لونها إلى الرمادي الباهت، ولم تصدق أنها تقف في ساحة المسجد الأقصى، وخارت قدماها.. وحاولت جاهدة أن تدقق النظر من خلف دموعها؛ لتتأكد أنها بالفعل تقف أمام المسجد، فإذا بها تلمحُ تلك القبةِ الذهبية الأخرى ألا وهي " قبة الصخرة " التي بُنيت من خراج مصر لمدة سبع سنوات.

وبكت عندما جال بخاطرها اسم مصر.. وعندما تذكرت الوطن.. وتقدمت إلى الداخل، وليس إلى الخارج كما كانت تفعل، وفصلتها عن المسجد بضع خطواتٍ..

وتراقص قلبها محلقاً في السماء، وكأن العالم كله أصبح ملكها، وهي التي كانت منذ دقائق عاجزة عن الحصول على مأوى.

صعدت الدرجات القليلة للسُلم الرخامي الذي يقودُ إلى داخل المصلى، وخفق قلبها، وأغمضت عينيها؛ لتتأكد أنها ليست واهمة، ولا تغط في سباتٍ عميقٍ داخل تلك الزنزانة العفنة التي ترقد بها في أحد سجون اليهود.

وسالت دموع الفرح على وجهها، ولم تجد تعويضاً أفضل من هذا عن حرمانها من كل سنوات عمرها الفائتة والضائعة هدراً بين جدران الزنازين.. وأن الله قد اصطفاها من بين ملايين العرب الذين يحلمون برؤية المسجد الأقصى ولو من بعيد؛ ليأتي بها إلى هنا دون علمها ودون أن تجرأ على الحلم بذلك ولو لمرةٍ واحدةٍ.

وتقدمت إلى الداخل.. لابد أن تسجد لله شكراً قبل أن تؤدي بعض الركعات.. واتجهت إلى الباب، ولم تكد تقترب حتى لمحت أناساً بالداخل، ميزت أنهم من أبناء بني صهيون فلا يجرؤ مسلمٌ واحدٌ على الدخول إلى المسجد بحذائه كما فعل هؤلاء الأنجاس.. ولا تقدر مسلمة واحدة على الدخول إلى المسجد هكذا بدون حجاب.

وساورها إحساسٌ بالقلق، وسارت بضع خطواتٍ في الممر الخارجي؛ لتبتعد عن مصباح الإنارة الذي يقبع فوق رأسها حتى لا ينتبه لوقفتها أحد.. ووجدت مكاناً ملائماً بعض الشيء، يرتفعُ بضع درجاتٍ عن الممر الأساسي، ولا يصله سوى ضوء خافت فلن يستطيع أحد أن يلمح وجودها فيه.

واعتلت الدرجات بقامتها الهزيلة.. وجلست ترقب أولئك الأشخاص الموجودين بالساحة والذين يتبركون بالكهنة.. ونظرت إلى الموجودين بحقدٍ

واستخفافٍ.. واستطاعت أن تميز فيهم أنهم بالتأكيد من شخصيات بني صهيون العريقة مع بعض رجالات الدولة والصحفيين وبعض رجال الأعمال وسيدات المجتمع

وجلست على مقربة منهم ترقبهم في صمتٍ حزينٍ وقد بدا عليها سيماء الشرود وكان وجهها أبيض رقيق الملامح به تجاعيد قليلة تخبرك عما فعلته بها السنون.. وقد ظهر على بشرتها صفرة وهزال ينبأنك أنها قضت جل أيامها بأحد سجون الاحتلال الصهيوني.. وبدا جسدها طويلا نحيلاً .. وزاد إرهاقها ذلك النعاس الذي يقف على أطراف أجفانها محاولاً أن يفرض سلطانه على عينيها، وقد جلست متربعة فوق الدرجات العالية، واستقرت يداها متشابكتين في حجرها، وانحنى كتفها، ومال رأسها حتى استقر ذقنها على صدرها، واستسلمت أجفانها لنومٍ متقطعٍ خائفٍ ومرتجفٍ.

وانتصف الليل، ولفحها البرد، وسرت الرعشة في أوصالها، وتيقظت من النوم مندهشة ومبهوتة لا تدري أين هي؟ وماذا تفعلُ هنا؟ ونجحت ذاكرتها في العودة إلى واقعها بسرعةٍ، وتذكرت كل شيءٍ.

ونظرت إلى الموجودين بالمسجد نظرةً سريعةً خاطفةً، وحولت بصرها إلى الآخرين الموجودين بالساحة لكن شيئاً غريباً لمحته داخل المسجد.. شيءٌ لمع في عقلها، وذكرها بطفلاها، وعاد بها إلى الوراء.. شيءٌ أدمى قلبها، وبث بداخلها لهيباً من الحزن.

وعادت ببصرها إلى المسجد مرة ثانية، وراحت تبحث بعينيها عن ذلك الشيء الذي رأته فأرق قلبها، وأحزنها كل هذا الحزن، ولكنها لم تجد شيئاً غريباً.. مجرد عابثين يتواجدون بالمسجد؛ ليواصلوا الاحتفال بعيدهم المزعوم.. وألقت نظرة على الموجودين

بالساحة من جديد، وكست وجهها سحابة من الوجوم، وتساءلت في داخلها بغضبٍ مكتومٍ:

-متى سينصرفُ هؤلاء؟ حتى تدخل المسجد وتضع فيه بعض همومها.. وتلقي عن كاهلها بعض يأسها؛ لتدعو الله أن يفرج عنها ما هي فيه.

ونظرت إليهم مرةً أخرى.. ووقفت في عنفٍ، وكأن عقربا لدغتها، وشهقت بشيءٍ من الصراخ.. لقد لمحت ما رأته قبل دقائق مرة أخرى.. لقد قدر الله لقاءهما من جديد وبعد مرور تسعة عشر عاماً.. تركت مكانها، واندفعت إلى داخل المسجد كلبؤةٍ المفترسةِ.. إنها هي ولابد أن تنتقم منها الآن.

واقتحمت باب المسجد ووُجهت الأنظار إليها في دهشةٍ واستغرابٍ.. واتجهت إلى السيدة التي تجلس على أحد المقاعد هناك قائلةً برغبةٍ واضحةٍ في الانتقام:

-لقد وضعكِ الله في طريقي ثانية؛ لأنتقم منكِ.

وزاد الهرج، واندفع إليها بعض الحراس يطوقونها.. وصرخت المرأة:

-دعوني أقتلها كما قتلتني من قبل.. لقد كنتُ أموتُ في اليوم ألف مرةٍ بعدما كانت هي سببٌ قتل ابني وتشريد ابنتي.. وتدمير حياتي.. إنها السيدة شيرا التي ألقت بي وبأبنائي مسبقاً في اليم.

****

استمر بقاء " عبدالرحمن " في المعسكر وحيداً في غرفته، لا يحدث أحداً، ولا أحد يحدثه حتى الضابط " جهاد " أو " الفارس الجديد " كما يحب أن يلقبه قد توقفت زياراته بعد تلك الليلة التي وثق به فيها وحكى له كل ما حدث.. لا يدري لمَ انقطعت زياراته؟ لكنه علم بعد ذلك أن الحمى قد أصابته، ومزقت أحشاءه وفتتت عظامه.

وقرر " عبدالرحمن " زيارته لكن " ياسر الصاوي " أخبره أن الطبيب قد منع عنه الزيارة؛ لسوء حالته.. وطلب منه الجلوس معه؛ ليتشاركا الحديث ولو لبضع دقائق.. وجلس " عبدالرحمن " وبدأ ياسر الحديث قائلاً بلومٍ:

-ألم تشتاق للقتال بعد، أم ضقت بنا ذرعاً إلى هذا الحد؟

وابتسم " عبدالرحمن " ابتسامة سخرية ثم هتف:

-لم أضق ذرعاً سوى بنفسي التي بين جنبي.

-لمَ؟

-لأن تفكيري المحدود، وقلبي المرهف، ونفسي التواقة للخير دوما أوقعاني في الهاوية، وأورداني موارد الهلاك.. أنا غير صالح للقتال.. غير صالحٍ لأي شيءٍ نافعٍ في هذه الحياة.

-أستطيعُ مساعدتك إن أردت.

-كيف.. هل سيعود الزمن إلى الوراء؛ لأعرض عليك الاختيارات التي وُضعتُ بينها، وتختار بدلاً عني ؟

-دائماً الخطأ يمكن تصحيحه.

-ليس في كل الحالات.

-أريد أن أعرف.

-وبعد أن تعرف ستقتلني بيديك هذه.

-ألهذه الدرجة؟

-وأكثر من ذلك.. " يا أيها الذين ءامنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ".. لم أعلم قيمة هذه الآية إلا الآن.. سيسؤوك ما فعلته، ولو أخبرتك حقيقتي سأورطك بقتلي، وأنت في غنى عن ذلك.. لا تلوث يدك بدماء مَن هم مثلي.

-لقد أثرت فضولي.. الخطأ وارد، وكل بني آدم خطاء.. تكلم فقد يريحك الحديث، وأعدك أنني سأضع تهوري جانباً وقبل حتى أن أسمع.

-أنا لا أخشى قتلك لي، ولا أهابُ الموت، ولعلك تدرك ذلك لكنني أخشى عليك.. أخشى أن يقولوا قتل أحد جنوده، وهم لم يعلموا حقيقتي بعد.

وتنهد " عبدالرحمن " وراح يحكي كل ما حدث.. وختم حديثه ثم أمسك بمسدسٍ صغيرٍ موضوعٍ على المكتب وقدمه إلى الضابط قائلاً:

-إن شئت أن تفعل فأنا لن أمنعك.. إنني أريد الراحة، وأعتقد أنني لن أجدها في هذه الحياة.. فإن شئت قتلي فعجّل به.

زفر " ياسر " زفرة حارة تحملُ بعض الأسى الذي ترسب في أعماقه من الحديث، وترك " عبدالرحمن " ووقف أمام النافذة؛ ليستنشق بعض الهواء الذي انحسر عن رئتيه بسبب كلام " عبدالرحمن".

وعاد " عبدالرحمن " إلى عزلته يقضي بها أياماً متشابهة.. ذهب مرة إلى والدته في عكا، فرفضت زيارته، وامتنعت عن رؤيته، فعاد إلى المعسكر، وهو يشعر أنه بات خير ملجأ له حتى يقضي الله في أمره.. ويتوب عليه كما تاب مسبقاً على كعب بن مالك وأقرانه.

وأخذت أيامه تمر بعد ذلك لا تخلو من الملل والكآبة، ولا يقطع مللها سوى بعض الأخبار التي تلتقطها أذنيه من حديث الجنود عن أنباء هجماتٍ لقواتنا هنا أو اشتباكٍ لهم مع العدو هناك.. ويوماً وراء يومٍ بدأت الضربات تشتد.

وذات يوم وقف أمام النافذة ينظر إلى الجنود ويستمع إلى حديثهم لقد فجر موقعانِ من مواقع العدو، وانفجرت ثلاث من طائراتهم في الجو، واشتبك الفريقان في معركةٍ حاميةٍ عند الطريق الشرقي بغزة، واستمرت لمدة أربعةِ ساعاتٍ، وأنزلنا بالعدو خسائر كبيرة.. ودكت الصواريخ ثلاث مبانٍ ذات أهمية للعدو في تل أبيب.

وصمت العساكر، وتحرك " عبدالرحمن " من خلف النافذة عائداً إلى فراشه، وقبل أن يسلتقي عليه سمع أزيز طائراتٍ، ثم صوت دويٍ وتوقف في مكانه لحظة.. وازداد الأزيز، وكثر الدوي وعرف أن العدو يغير بطائراته على الموقع وتحرك الجنود..

وهتف القائد:

-العدو يهجم.. أنزلوا المخابئ.

ثم اندفع بأقصى سرعةٍ داخل الموقع، وبعد لحظاتٍ خرج منه، وكان يجلسُ في ممر القيادة بجانبه جهاد، وازدادت ضربات العدو.. وأخذت طائرات " السكاي هوك "

تمر مجموعة تتبعها أخرى؛ لتفرق حمولتها فوق الأبنية ومخازن الطعام، وتدك الموقع في كل مكان.

وتطلعت " جهاد " إلى " ياسر " متسائلة:

-نضرب؟

-نضرب ماذا؟ سندعهم يفرغون حمولتهم كما يريدون.

ولقد أمرنا عساكرنا بالاختفاء في المخابئ خلف الصخور جيداً.. نحن لا نريد خسائر لا مبرر لها ومن الأفضل أن نحتفظ بذخيرتنا نطلقها فيما يجدي.

واستمر ضرب الطائرات في عنادٍ وإصرار.. ثلاث ساعاتٍ من الضرب المتوالي والموقع يهتز من الانفجارات.. وخرج أربعة من الجنود من خلف الصخور يحملون مدافع " أر.. بي.. جي.. " واشتبكوا مع طائرات العدو والتي فتكت بهم دون رحمة.. وهبط جنود العدو من الطائرات، وانتشروا داخل الموقع، وبدأوا في التحرك داخله، والعبث بكل ما يحويه.

وتوصلوا إلى غرفة القائد، فأخذوا يعبثون بأوراقها وبالكتب والخرائط التي تضمها مكتبة الغرفة.. وقاموا بنقل كل ما يفيدهم إلى طائراتهم ثانية بعد أن فتشوا غرف بعض الشخصيات المهمة بالموقع وعلى رأسهم " جهاد "، وبمجرد أن انتهوا أشعلوا النيران في مخزن الذخيرة.

وصرخت " جهاد " من داخل غرفة القيادة وهتفت:

-هل سنظل صامتين هكذا؟ ألم تقل أننا بحاجة إلى كل طلقة؟

وبتر سؤالها صوت العدو من مكبرات الصوت قائلاً بالعربية:

-كانت هذه محاولة للتأديب؛ لأنكم تجرأتم على المقاومة، وإطلاق النيران في تل أبيب نفسها.. في المرة القادمة سنشعلها حرباً ليس بمواقع التدريب فحسب وإنما أيضاً بالمدن والأحياء حيث المدنيين.. وارتفعت الطائرات بجنودها مرة أخرى عائدة من حيث جاءت.

****

وعادت الحشود إلى الحي الذي كان يبدو كله كأنه أطلالاً والدخان يتصاعد من كل مكان.. وأصوات انفجارات ما زالت تعلو من هنا أو هناك، وعربات الحريق تخترق الحشود بسرعة، لإخماد الحرائق التي نشبت.. وأحست العجوز أنها لا تقدر على السير، وحاولت الاستناد على أحد الجدران.. وجاءت إليها " آسيا " إحدى فتيات الحي، والتي كانت ترى في " عبدالرحمن " دائماً فتى أحلامها!

وقادت العجوز إلى البيت المحطم.. ووقفا بين الأنقاض وقالت " آسيا ":

-البيت لم يعد يصلح للسكن يا خالتي.. تعالي إلى بيتنا إن به جزءا سليما يصلح العيش فيه.

وأحست العجوز بعجزٍ عن التفكير.. لقد حطمت الأحداث المتلاحقة أعصابها.. ولم تعد تعرف كيف تتصرف

ولكنها هتفت:

-اذهبي أنتِ يا ابنتي، إنه بيتي سأعيش به مهما كانت حالته.. وسأحاول أن أرممه من جديد كما سيفعل كل أهل الحي.

-إن بيتنا هو بيتكِ يا خالتي.. وفي هذه الشدائد يجب أن يسع بعضنا بعضاً.

وتنهدت المرأة.. لو هدم المنزل على رأسي لكان أهون مما فعله ابني الآن.

-لا تظلميه.. لعل له ظروفه الخاصة ومبرراته المقبولة.

-الخيانة لا مبرر لها!

هي الجملة ذاتها التي نطقها " عبدالرحمن " في المعسكر، وهو يحمل أحد ضحايا الغارة الأخيرة عندما هتف به " ياسر ":

-لا تقسو على نفسك، لك مبرراتك المقبولة، وأعذارك المنطقية.. ثم تنهد مردفاً:

-لقد استأسد هؤلاء الكلاب وتجبروا .. لقد ركبهم الغرور، وباتوا يعاملوننا بحقد الغزاة.. لقد فاجؤنا الليلة بحربهم كانت شيئاً بشعاً، أجلس في غرفة القيادة ولا أقدر على فعل شيءٍ.

كنتُ أسمع الدوي من هنا والانفجار والصراخ من هناك ولا أقدر على فعل شيءٍ سوى أن أهتف في اللاسلكي:

-اختبؤوا بين الصخور.

-تركتُ الضابط " جهاد " أكثر من مرة مغادراً الغرفة؛ لأفعل شيئاً لكنني كنتُ أقفُ على بابها كل مرةٍ لم أستطع أن أرى شيئاً في الظلام.. كان كل شيءٍ مضطرباً مختلطاً ومتشابكاً، ولم أكن أعرف أين هم وأين نحن؟

وكلما نظرتُ إلى " جهاد " وجدته يهذي من الحمى مرة، ويستفيق منها أخرى، ولمحتكم تحملون الجرحى، وتخبؤوهم بين الصخور.. وكدتُ أخرج ولكنني خشيتُ أن

يلمحوني فأدلهم على المركز الاحتياطي للقيادة الملتصق بمخزن الذخيرة فيشعلون النيران فيه.

كنتُ أشعرُ بالعجز والفشل وعدم قدرتي على تحمل مسئولية معسكر بأكمله.. كان الشعور بالعجز يفتكُ بي فتكاً.. لكنهم كانوا كثيرين.. طائراتهم تملأ السماء.. تذهب وتجيء.

وازدرد " عبدالرحمن " ريقه قائلاً:

-لقد صمد جنودنا.. لقد فعلوا كل ما يمكنهم؛ لإنقاذِ المعسكر، ولكنهم فشلوا فمات منهم مَن يستحق الحياة.. وظل منهم مَن يستحق الموت، وأشار إلى صدره.

ومضى الليل.. ليلٌ لم يغمض فيه جفنٌ لأحد.. العيون مفتوحة والدوي ما زال صداه يصم الآذان.. وفي الصباح، تركت العجوز بيت " آسيا " الذي قضت فيه ليلتها، وغادرت إلى بيتها، وحاولت آسيا أن تمنعها لكنها آثرت ألا تترك البيت ستعود إليه؛ لترمم صدعه، وتقيم سقفه، وستربؤ ما تبقى منه.. ستبيع غرفة عبدالرحمن لنجار الحي.. لم تعد لها قيمة الآن، لقد مات صاحبها منذ الأمس، وستعيد بثمنها بناء المنزل كما كان.

-بل ابقي معي، واتركي الباقي من غرفة " عبدالرحمن " كما هي فكما تعلمين لا أهل لي.. ابقي معي واتركي منزلكِ.

-غير معقولٍ أن أتركه.

-بل غير معقولٍ أن تسكنين في ثانيةً.. لو فعل " عبدالرحمن " شيئاً لا يريده اليهود قد يدمرونه مرة أخرى.

-سأبنيه مرة أخرى.

-قد يدمرونه وأنتِ فيه.

-أغريبٌ أن أدفن في بيتي؟!

وخلال أيامٍ قلائل رُمِمَ الحي وأعيد بناؤه من جديد.. وعاد كل واحدٍ إلى بيته، وكأنهم يمدون جذورهم في الأرض كلما حاول اليهود اقتلاعهم منها.. لن يهجروا هذه الأرض أبداً.. إن اليهود يبثون الرعب في نفوسهم كي يتركوا الوطن ولكنهم أبوْا إلا أن يموتوا فيه.

****

-حمداً لله على سلامتك.. أقلقت المعسكر كله عليك.. وقع الحمى عليك كان أسوأ من وقع الاحتلال ثم أردف " ياسر " ساخراً:

-الحمى فعلت بك أكثر مما فعله العدو بنا.

ردت " جهاد " في ابتسام:

-ليس لهذه الدرجة.

-على العكس تماماً.. لقد توقفت بعض عملياتنا ريثما يتم شفاؤك.

-ألهذه الدرجة؟

-بالتأكيد.. وليس أمامنا وقتٌ للحديث في ذلك سنبدأ في التخطيط من الآن.

-ولكنني كنتُ أحتاجك في أمرٍ ما أولاً.

-ماذا هناك؟

-كنتُ أود سؤالك.. مَن تكون " حياة حمدي " هذه؟

عقد ياسر حاجبيه قائلاً في دهشٍ:

-مِن أين لك بهذا الاسم؟

-لقد سمعته من " عبدالرحمن ".

-هل حكى لك كل شيءٍ؟

-نعم.. ما عدا الجزء الذي يخص هذه الضيفة الهامة.

مط ياسر شفتيه قائلاً:

-الحربُ خدعة.. والسياسة لعبة قذرة لذلك كي تكون محارباً جيداً وسياسياً محنكاً عليك أن تشك في كل ما يدور حولك حتى أصابعك لا تمنحها كل الثقة فقد يبترها العدو في أي وقتٍ.

-لم أفهم!

-ليس من الفطنة أن تضعَ كل ثقتك في ضابطٍ واحدٍ.. وقديماً قالوا:

" لا تضع البيض في سلةٍ واحدةٍ حتى إذا كُسرت واحدة بقيت لك أخرى".

وهذا المبدأ نسير عليه نحن هنا.. هناك أشياء تعرفها أنت وأحفظها أنا تمام الحفظ عن ضابطٍ مثلك، ورغم أنه بنفس قدرتك وكفاءتك.. وهناك أشياء أخفيها عنك وأمنحها له.. وهناك أشياء أخرى أخفيها عنكما رغم ثقتي التامة بكما، مَن يدري ربما أسر أحدكما وأجبره التعذيب على الاعتراف بكل ما يعلم؟ ربما أخبرتك مَن تكون هذه الضيفة، وبالمناسبة المعسكر كله يعلم مَن تكون هي لكن الأحداث المتلاحقة شدت أعصابهم، وأفقدتهم عن السؤال عنها وهذا ما كنا نريده بالضبط.

لذلك لقد قررنا نشر خبرٍ خاصٍ جداً في أحد صحف الصباح غداً أو بعد غدٍ يفيد أن صاحبة الشخصية الحقيقة قد عادت إلى بلدها سالمة آمنة حتى يشعر اليهود بضآلة هذه الذي يعتقلونها، وننجح في مساومتهم عليها مقابل أسيرٍ إسرائيلي، أو على الأقل نثير البلبلة في أجهزتهم، ونبعث الشك في عقولهم.

في هذه المعسكرات كل شيءٍ يحتمل الصواب.. وأيضاً كل شيءٍ يحتمل الخطأ.. كل شيءٍ يحتمل أن يكون حقيقيا أيضاً من المحتمل أن يكون كل ما حولنا مزيفًا وسرابا.. لنتحدث عن العمل.. أخذ نفساً عميقاً ثم أتبع:

-تعلم أن الغارة التي أطلقت نيرانها على المدنيين لعشرة أيامٍ فأذاقوهم سوء العذاب.

هزت " جهاد " رأسها مؤكدة.. فواصل الحديث قائلاً:

-ولقد كان لرجالنا في غزة من هذا أكثر النصيب وواجبهم علينا الآن أن نقف بجوارهم حتى يتجاوزون محنتهم لذلك قررت اللجنة الاجتماعية مساعدتهم مادياً ومعنوياً حتى يزيح الله عنهم ما هم فيه..ولقد وقعتُ على قرار اللجنة.....

وتساءلت " جهاد " مقاطعة:

-لأول مرةٍ تقحمني في عملٍ خاص باللجنة الاجتماعية.. أعتقد أن دوري هنا بين مدفعٍ أو قذيفةٍ.

-لم أكمل حديثي بعد.. إنني اخترتك على رؤوس الزملاء للذهاب إليهم.

ودق قلبها في عنفٍ، فالجميع يألفونها في غزة، ويمكنهم بسهولة تمييز تنكرها

فتساءلت بجزعٍ:

-أنا؟!

-نعم.. لمحتك فيك ذكاء وفطنة الكاتب أو الصحفي.. لا أدري، ولكنني متأكدٌ أنك قادرٌ على حمل القلم كأعز ما يمكن أن تحمل، وأعتقد أن حمل القلم بالنسبة لك لا يقل عن أهمية حمل المدفع بالنسبة لي!

وألهب حديثه في صدر " جهاد " تذكر الكتابة والحديث عن تجربتها المريرة في الموقع ووصف ما مرت به وما يعانيه الجميع هنا.. لقد اشتاقت فعلاً إلى قلمها، وإلى مكتبها وإلى آلالات التصوير.. لكم طاقت إلى ضم صديقتها سلمى ونظرات الود التي تحملها أعين الزملاء ولكنها حاولت كبح جماح مشاعرها حتى لا يُكتشف أمرها.

-شرد ذهنك.. أليس كذلك؟

هزت رأسها نافية.

-كنتُ أخبرك أننا سنبدأ في الذهاب إلى تلك الأسر المنكوبة من الغد، وسنترك الموقع وستذهب أنت أيضاً معي، وهذا ليس دائماً لكن زيارة الغد ستجمعنا نحن الاثنين.

-لمْ؟

-أهلها مكافحون.. أبٌ عن جد، بذلوا من وقتهم وجهدهم وروحهم الكثير من أجل هذا الوطن.. أقل ما يمكن أن نقدمه لهم أن نشعرهم أن تضحيتهم لمْ تذهب هباءً منثوراً رغم علمي التام أنهم ليسوا في حاجةٍ إلى شكرٍ منا ثم تنهد تنهيدةً تذخر بالأسى قائلاً:

-لقد كان وليدهم أعز أصدقائي.. شاباً طيباً يحمل من الهموم ما لو وزع على أهل الأرض لكفاهم.. يحمل عبء عمله وعبء أعمال أبيه وعبء أعمالنا هنا في حركات المقاومة.. كان هو قائد اللجنة الاجتماعية؛ لتوزيع المساعدات على الأسر من أهل الضحايا والمنكوبين، ثم ها نحن نعلن اسم أسرته ضمن الأسر المنكوبة!

-وأين ذهب؟

-ما زال حياً.. لكنه أقرب للموت من الحياة.. يقولون إنه لم يفصله عن الموت سوى سويعاتٍ قليلة.. لم أقدر على زيارته ولو لمرةٍ واحدةٍ.. أخشى أن أسلم بما هو فيه.. أخشى رؤيته عاجزاً على قيد سنتيمترات من الموت.. إنه أعز من عرفت.. وأفضل مَن صادقت.. وأخشى أن يصيبه مكروه فيصيبني ضعفه.

-سينجو بإذن الله لو أراد له الله الوفاة؛ لأماته من يومها، لكن الله وضعه في الاختبار ووضعنا معه؛ ليرى هل سنصبر أم سنجزع.. لقد حمستني لزيارة أسرته، وأعدك أنني سأبذل قصارى جهدي في البحث عن طبيبٍ متخصصٍ ؛ لعلاج هذا النوع من الحالات.

-ليفعل الله ما يشاء.. مر على عساكرك؛ وتأكد من تأمين مخزن الذخيرة؛ واذهب إلى النوم وستبدأ رحلتنا بعد الفجر.

****